الدعوة إلى الوحدة في تاريخ الإمامة الزيدية

للدكتور محمد عبد الله ماضي
أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية أصول الدين

الإمامة الزيدية تنتسب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين . ولقد كان الإمام زيد من أعلام أهل البيت الذين عرفوا بالعلم والاجتهاد ومن أصحاب الرأي والمكانة الذين اجتمع الناس حولهم فاستمعوا لقولهم وأخذوا عنهم وتمذهبوا بمذهبهم . تحدث عنه مرة ابن أخيه الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه فقال : « كان والله أقرأنا لكتاب الله ، وأفقهنا في دين الله ، وأوصلنا للرحم ؛ والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله » . وقال عنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب الفقهي المعروف : « شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله ، فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم منه ، ولا أسرع جوابا ، ولا أبين قولا .. لقد كان منقطع القرين» .

وإنه لمن أبرز السمات الواضحة في تاريخ الإمام زيد أنه كان شديد الحرص على جمع كلمة الأمة الإسلامية شديد الحرص على المحافظة على الوحدة التي اكتسبها العرب والمسلمون بفضل الإسلام . ولهذا كان لا يتورط في الخلاف والتعصب للرأي إلى درجة التطرف والمبالغة والافتئات على مخالفيه في الرأي ما داموا لم يشتطوا ولم يظلموا . وما داموا يلتزمون حدود العدالة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

ومن المواقف الواضحة التي تشهد بهذا الاتجاه وتؤيده في تاريخ الإمام زيد : موقفه من خلافة الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فهو على الرغم من أنه كان يرى أن جده عليا رضي الله عنه كان أحق بالخلافة منهما فقد اعترف بصحة

خلافتهما ، وعلل ذلك بما يؤكد إنصافه وحرصه على وحدة المسلمين ، وعلى قول كلمة الحق . ولم يرض لنفسه فى موقفه هذا أن ينحرف فى تيار الخلاف فى الرأى إلى درجة الموالاة لعواطف الثائرين من الأتباع والمحبين ، على حساب الصالح العام ، وعلى حساب وحدة المسلمين بما يجرهم إلى تفريق كلمتهم وصدع بنيان وحدتهم . فبرر فى هذا الموقف قيام خلافة أبى بكر ، وقال بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك .

وفى ذلك يقول أبو جعفر الطبرى فى كتابه « تاريخ الأمم والملوك » متحدثا عن بعض الذين بايعوا زيدا فى الكوفة : « اجتمعت إليه جماعة من رءوسهم فقالوا : رحمك الله ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما : ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا . قالوا : فلم تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبا على سلطانكم فنزعاه من أيديكم ، فقال لهم زيد : إن أشد ما أقول فيما ذكرتم : أنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين ، وأن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة » .

وقد كان الإمام زيد ولا شك واسع الأفق ، لا يتعصب لرأيه تعصبا يحول بينه وبين أن يقول كلمة الحق ويشهد لصاحبها ولو كان من خصومه فى الرأى ؛ كما أنه لم تمنعه الخصومة فى الرأى من أن ينتفع بعلم العلماء ويتتلمذ عليهم ولو كانوا من غير المعروفين بالتشيع لأهل البيت . ولهذا رأيناه يتتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلة رغبة منه فى أن يتحلى بالعلم وأن يحصل الأصول والفروع على الرغم من اعتقاد واصل : « أنّ على بن أبى طالب ــ فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ــ ما كان على يقين من الصواب ، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه » (١)

كان الإمام زيد إذاً بعيد النظر ، سليم الفطرة ، حريصا على جمع الكلمة

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى

وعلى سلامة الوحدة بين المسلمين . حرصه على مبادىء الإسلام التى بعث بها جده محمد عليه الصلاة والسلام، تلك المبادىء السمحة التى كفلت الحرية للناس فى أنفسهم وفى عقائدهم وآرائهم. والتى آخت بين العرب والمسلمين فاصبحوا بنعمة الله إخوانا.

* * *

وفى هذا الاتجاه نفسه سار الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين مؤسس الدولة الزيدية باليمن ، وناشر ألوية المذهب الزيدى الهادوى فى ربوعها ، فإنه بعد أن دعى من رؤساء قبيلة خَوْلان ليؤسس الدولة الزيدية باليمن ذهب إلى هذه البلاد واستقر بها فى المرة الثانية سنة ٢٨٤ ﻫ (٨٩٧ م) ، فى هذا الوقت الذى كانت فيه أحوال الخلافة العباسية قد اضطربت ، والسلطة المركزية فى بغداد قد ضعفت . والذى كانت فيه أحوال اليمن أشد اضطرابا من غيرها من الأقطار الإسلامية لبعدها عن مركز الخلافة وانقطاعها عن مقر الحكم ، ولكثرة المتطلعين فيها إلى الحكم والسلطان والمتنافسين على النفوذ . من أمثال بنى زياد فى زبيد . وآل ابن يعفُر الحُوالى فى صنعاء وشِبام وكوكبان ، وآل المناخى فى مُذَيخره وبلاد الجَند ، وآل الضحاك فى بلاد حاشد وغيرهم فى بلاد اليمن الأخرى .

ولقد كانت منطقة صَعدة فى جهات اليمن الجبلية الشمالية ـ حيث تسكن قبيلة خولان وحيث نزل الإمام الهادى إلى الحق يحي بن الحسين ، أكثر بلاد اليمن فى الاضطراب والفوضى ، منقطعة الصلة تقريبا بدولة الخلافة العباسية وبعمالها فى اليمن ؛ كما أن سكانها من خولان ومن يتصل بهم لم يتفقوا فيما بينهم على اختيار زعيم منهم ليقوم بمهمة الحكم فيهم ، بمثل ما فعل غيرهم فى المناطق اليمنية الأخرى . فلما وصل الهادى إلى الحق إلى هذه المنطقة فى تلك الظروف القاسية أيقن أنه سوف لا ينجح فى مهمته فى الحكم وفى إقامة دولة زيدية ثابتة الأركان متينة البنيان باليمن ـ إلا إذا نجح فى توحيد الصفوف وجمع الكلمة ، وفى القضاء على أسباب الخلاف واجتثاثها من جذورها ؛ فكان عليه فور وصوله أن يعنى أولا

وبالذات بالقضاء على الفتن وبتهدئة الأحوال وتيسير الأرزاق وتأمين الناس على حياتهم وممتلكاتهم فى منطقة صعدة مقر الدولة الناشئة . فعمد الهادى أولا إلى الاصلاح بين الزعماء ورؤساء القبائل ، وإلى حسم مادة الفتنة والخلاف فيما بين أهل خولان صعدة ، ثم جمع زكاة الأموال والأطعمة من أغنيائهم ووزعها على الفقراء والأيتام . وبعد أن رأى أن النفوس قد اطمأنت ، وأن الأمور قد استتبت ، وأن سكان صعدة وما يحيط بها قد توحدت كلمتهم وأصبحوا صفاً واحدا من خلفه ، وصاروا بذلك قوة يعتد بها ويستطيع الاعتماد عليها ، شرع يفتح المواطن الشمالية والشرقية من بلاد اليمن ويوحد بين أجزائها المتنافرة المتحاربة فلم يمض عامان حتى استطاع الهادى أن يوحد بين منطقة صعدة وكل المناطق المحيطة بها ، من منطقة نجران ومنطقة جبال بَرَط ومنطقة بلاد خيْوان والحضَن وأثافت ، فوحد بذلك بين كل المناطق الشمالية والشرقية من اليمن ، ثم شرع يتجه إلى الجنوب حتى دخل صنعاء عاصمة اليمن الكبرى فى المحرم من سنة ٢٨٨ ﻫ وفى يناير من سنة ٩٠١ م .

وهو وإن لم تساعده الظروف على البقاء بصنعاء ، بل اضطرته إلى العودة إلى صعدة والاستقرار بها حتى وافاه أجله فى ٢٠ ذى الحجة من سنة ٢٩٨ ﻫ ١٩ أغسطس من سنة ٩١١ م ، فانه قد نجح فى تأسيس الدولة الزيدية باليمن ، فأرسى قواعدها على أساس متين .

وكان من أهم العوامل التى ساعدته على النجاح حرصه الشديد على توحيد الصفوف وعلى القضاء على أسباب الخلاف بين قبائل الشعب اليمنى بكل مايستطيع من جهد ، فسلك بذلك أضمن الطرق وأقربها ، فإنا نراه مثلا بعد أن أخضع جهات نجران فى السنة الأولى من وصوله إلى اليمن لم يكتف بالتسليم والخضوع من أهلها ، بل عمد إلى الإصلاح بين الفريقين المتخاصمين من أهل هذه البلاد ، فريق قبيلتى شاكر ويام من همدان . وفريق بنى الحارث من ازد عمان ، فصمم على أن يزيل ما بين الفريقين من شقاق وأن يقضى على ما فى نفوسهم من حزازات

نتيجة للخلافات الطويلة السابقة ، فعقد الصلح بين الفريقين وأخذ عليهم المواثيق الأكيدة بالاتفاق وترك الشقاق . وبايعه الجميع على ذلك ، ولم يشأ الهادى أن يغادر نجران إلا بعد أن مكث مدة فى قرية هجر النجرانية يرقب الأحوال ، حتى اطمأن إلى استقرار الحال بهذه البلاد وهدوئها . وإلى سكون الفتنة بين أهلها ، وتقرر قواعد الصلح والمؤاخاة . وبعد ذلك عاد إلى صعدة عاصمة دولته ومركز سلطانه .

* * *

وبعد وفاة الإمام الهادى إلى الحق بقليل أقام ولده الثانى الإمام أحمد الناصر لدين الله ركنا مكينا فى صرح الوحدة الذى أسسه والده بين أفراد الشعب اليمنى ، حيث استطاع الإمام أحمد أن يقضى على فرقة القرامطة التى عاثت فى الأرض فساداً ، واستباحت الحرمات واعتدت على الأنفس والأموال ، والتى كانت سببا فى إضعاف الشعب اليمنى وتفريقه إلى شيع وأحزاب متنافرة متناحرة ، وفى إشاعة الفوضى والاضطراب والانحلال بين أفراده . فقضى الامام أحمد على هذه الطائفة أواخر شعبان من سنة ٣٠٦ هـ / يناير من سنة ٩١٩ م فى موقعة نُغَاش (١) الشهيرة فى تاريخ الإمامة الزيدية باليمن . حيث هزمها وخضد شوكتها فلم يعد لها بعد ذلك شأن يذكر ببلاد اليمن . وبذلك سكنت الفتنة وعادت لسكان هذه البلاد الوحدة .

* * *

وإذا جاوزنا هاتيك الحقبة البعيدة فى تاريخ الإمامة الزيدية باليمن . واردنا البحث عن شواهد العمل للوحدة وجمع الصفوف فى تاريخ الإمامة الزيدية اليمنية فى العصور القريبة . فإننا نستطيع أن نجد هذه الشواهد ماثلة واضحة فى تلك الفترة

---

(١) يقول الهمدانى فى « صفة جزيرة العرب » نغاش جبل يقع بظاهر بلاد حاشد من بلاد اليمن . ويقول القاضى عبد الله بن عبد الكريم الجرافى فى كتابه « المقتطف من تاريخ اليمن » نغاش مكان على مقربة من مدينة عمران .

الهامة من تاريخ اليمن الزيدية الحديث ، تلك الفترة التى حكم فيها الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ، والد جلالة الإمام أحمد الناصر لدين الله إمام اليمن الحالى ، وسمى جده الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس الدولة الزيدية باليمن .

وكما أن الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين هو مؤسس الدولة الزيدية باليمن – كما سبق أن ذكرنا – فكذلك نجد أن الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين هو باعث دولة اليمن الزيدية الحديثة ، وجامع شتاتها . فلقد بويع بالإمامة بعد وفاة والده الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين فى ربيع الأول من سنة ١٣٢٢ هـ / وفى يونية من سنة ١٩٠٤ م ، فى هذا الوقت الذى كانت فيه دولة اليمن الزيدية مغلوبة على أمرها خاضعة لنفوذ الاتراك العثمانيين أصحاب دولة الخلافة العثمانية ، والذين كانوا يحكمون حكما مباشراً فى صنعاء وما يحيط بها وفى بلاد تهامه ، وكانت حامياتهم العسكرية منبثة فى كل هذه المناطق . وكانت رقعة الدولة الزيدية المستضعفة فى ذلك الوقت محصورة فى صعدة وما يحيط بها .

فقبل الإمام أن يتحمل تبعات الحكم ، وهو يعرف عظم المسؤولية التى ألقيت على عاتقه بعد أن أصبح إمام الزيديين وزعيمهم السياسى ، يعرف أنه قد أصبح عليه أن يحمل السيف فى وجه دولة الخلافة العثمانية ويحارب جيشها فى اليمن وعمالها الاتراك الذين عبثوا بحرية العرب اليمنيين وبحقوقهم ، وخرجوا على تعاليم الدين الإسلامى ، وارتكبوا الكثير من الفظائع والموبقات ، ليحرر اليمن ويحصل للشعب اليمنى على الوحدة والاستقلال .

فأعلن الإمام يحيى عقب توليته للإمامة الجهاد ضد الاتراك الذين كانوا بصنعاء العاصمة وبالبلاد الساحلية من اليمن ، فلقد استبد هؤلاء بأفراد الشعب ، وأرهقوهم بالضرائب ، وأهملوا مصالحهم ، وعاملوهم معاملة بعيدة عن الحكمة والإنصاف حتى أحرجوهم ؛ فما هو إلا أن نادى الإمام بحرب هؤلاء المستبدين

حتى هب أفراد الشعب اليمنى ملبين لدعوة إمامهم ، فحملوا السلاح وحاربوا الحاميات التركية حيث وجدت ؛ ثم تجمعت الجيوش العربية اليمنية حول صنعاء - وكانت تعسكر فيها أكبر حامية تركية باليمن - فحاصروها حصاراً شديداً حتى اضطر الاتراك فيها إلى التسليم بعد حصار دام ما يقرب من ستة أشهر . وبعد أن استمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة سنوات اضطرت الحكومة التركية إلى تسوية المسألة تسوية ودية بعقد صلح مع الإمام يحفظ لشعب اليمن العربى حقوقه ، وهو الصلح المعروف بصلح دَعّان ، الذى عقد فى ذى القعدة من سنة ١٣٢٩ هـ / وفى نوفمبر من سنة ١٩١١ م . فحصل الإمام بهذا الصلح لليمن على الاستقلال الداخلى . ثم تتابعت الحوادث ، ووقعت الحرب الكبرى الأولى ، واستقل اليمن استقلالا تاماً فى سنة ١٣٣٧ هـ / سنة ١٩١٨ م بعد انتهاء الحرب وانسحاب الجيوش التركية التى كانت محاصرة باليمن أثناء الحرب . وتأكد هذا الاستقلال ، وصودق عليه ، واعترف به دولياً فى سنة ١٣٤١هـ/سنة ١٩٢٤م، فى الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الدولى الذى عقد فى « لوزان » لتسوية المسائل التى كانت لم تسو بعد بين الأتراك والحلفاء . ولقد حافظ الإمام يحيى على استقلال اليمن ونماه إلى أن لقى ربه فى ربيع الثانى من سنة ١٣٦٧ هـ / وفى فبراير سنة ١٩٤٨ م أثناء حوادث الثورة اليمنية المعروفة .

وفى هذه الفترة الطويلة من حكم الإمام يحيى حميد الدين - وهى تقرب من نصف قرن - استطاع رحمه الله أن يبعث دولة اليمن الزيدية من جديد ، وأن يجدد لها قوتها ونشاطها ، وأن ينتزع لها استقلالها ويعيد لها وحدتها . ولقد كان العمل للوحدة والدعوة إلى ضم الصفوف هو الطابع المميز لسياسة الإمام التى سار عليها أثناء حكمه ، فإننا نجد أنه عمل منذ البداية ، وعقب البيعة له بالإمامة مباشرة على أن يوحد صفوف اليمنيين ، ويجعل منهم قوة موحدة ليدفع بها العدوان وليحرر اليمن من الحكم التركى الظالم ؛ فقد توحدت القبائل اليمنية على يده ، وتوحدت بلاد اليمن واستقلت ، وابتدأت نهضتها الحديثة .

وكان الإمام متأثراً فى سياسته وعمله للوحدة بعاملين رئيسيين ، عامل القومية العربية ، وعامل المبادئ الدينية الإسلامية ، الداعية إلى إحقاق الحق ودفع الظلم والعدوان ، والداعية إلى الوحدة والتآخى ، وإلى التعاون فى سبيل البر والتقوى ، فدفعه تأثره بهذين العاملين إلى أن يقود الجيش اليمنى العربى ويحارب به ضد الحكم الأجنبى التركى الظالم ، الذى جاوز حدود العدالة ، وخرج على تعاليم الدين ، وبعد أن عقد الإمام يحيى صلح دَعّان مع الأتراك لم يشأ ولم يقبل أن يستجيب لتحريض الانكليز له ضد الأتراك أثناء الحرب الكبرى الأولى ، فقد حاول الانكليز إغراءه بدولة الخلافة العثمانية كما فعلوا مع غيره من زعماء العرب وحكامهم ، فكان الإمام صلب العود وفياً لعهده ، ولم يقبل إلا أن يكون مثال الرجل العربى المسلم ، الذى لا يرى من الدين ولا المروءة أن يعين « كافراً على مسلم » . ولم ينته وفاء الإمام عند هذا الحد ، بل جاوزه إلى درجة أنه قد ساعد الجيش التركى وموظفى الدولة المدنيين حينما حوصر هؤلاء جميعاً باليمن . وانقطعت الصلة بينهم وبين تركيا ، فساعدهم الامام مادياً وأدبياً ، وتعاون معهم فى حكم البلاد ، وعمل على أن تصلهم أرزاقهم طول مدة الحصار ، وفضل أن يكون وفياً باراً بإخوانه المسلمين فى محنتهم ، ولو كانوا من الأعداء السابقين . ولم يشأ الامام أن ينتهز الفرصة ويقضى على الجيش التركى ـ وقد كان ذلك أمراً ميسوراً له ـ ثم يعلن استقلاله التام بكل بلاد اليمن .

كذلك دفع الامامَ تأثره بهذين العاملين إلى أن يشارك مشاركة فعالة فى الدعوة للوحدة العربية ، وفى العمل لانشـــاء جامعة الدول العربية ، ولم يتحلل الإمام يحيى من تأثره بهذين العاملين ، حتى فى أوقات الخلاف الذى وقع بين اليمنيين وبين بعض جيرانهم وإخوانهم من العرب ، كما حـــدث فى سنة ١٣٥٣ هـ / سنة ١٩٣٤ م ، حينما أدى الخلاف على الحدود إلى وقوع الحرب بين اليمن والمملكة العربية السعودية . فلقد بادر كل من الإمام يحيى والملك عبد العزيز آل سعود إلى الاستجابة لعاملى العروبة والاسلام ، فوضعت الحرب

أوزارها ، وحل الوئام والاتفاق محل الخصومة والحرب ، وعقدت معاهدة الطائف بين الفريقين ، وكانت بحق ـ كما عنون لها ـ « معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية » ، وهذه المعاهدة تعبر تعبيرا بينا واضحا عن تأثر الإمام بعاملى العروبة والاسلام فى سياسته ، كما كانت تعتبر نمطا جديدا فى المعاهدات . وفتحا موفقا فى حسن العلاقات بين دولتين مسلمتين عربيتين ؛ فلقد بنيت على اعتبار أنه لا غالب ولا مغلوب فى الحرب التى وقعت بين الفريقين ، وإنما لوحظ فيها أن تكون تنظيما للعلاقات ، وضمانا لسير تلك العلاقات فى طريق الصداقة والأخوة ووحدة المصالح « رغبة فى جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ، ورفع شأنها ، وحفظ كرامتها واستقلالها » كما جاء فى الكلمة التى صدرت بها المعاهدة .

وهكذا نجد الشواهد التاريخية والوقائع العملية فى حياة الامام يحيى حميد الدين تدل دلالة بينة واضحة على دعوته للوحدة وعمله الفعال للتقريب والتآخى بين العرب والمسلمين . ولقد كان ذلك أساس نجاح الإمام فى تصحيح وضع اليمن السياسى . وفى حصوله على استقلال بلاده ، وفى المحافظة على هذا الاستقلال طول حياته .

* * *

واليمن وإن كان لا يزال بحاجة ماسة إلى الكثير من أعمال الاصلاح فى النواحى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية وغيرها ، فإن الآمال معقودة على جلالة إمامها الحالى ، الإمام أحمد الناصر لدين الله ، وإنا لنرجو وننتظر أن يتمم الله على يده لليمن من الخير والنهوض ما بدأه والده الامام الراحل الكريم ، وأن يطهر الله جميع أرض اليمن فى الأجزاء الجنوبية من فساد الاستعمار على يد الامام أحمد الناصر لدين الله ابن الامام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ، كما طهر الله اليمن سابقا من فساد القرامطة على يد الامام أحمد الناصر لدين الله ابن الامام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين .

حقق الله الآمال ، وأمدنا بعونه وتوفيقه .